

## ■ الباب الخامس ■

### آثار «نظام الملك» الثقافية

مؤلفاته : سياسة نامة ، بند نامة .  
رسائله ، وأماليه في الحديث .

obbeikandi.com

### سياسة نامة أو سير الملوك

السياسة: معناها، وأهم المؤلفات فيها، تأييد نسبة الكتاب للمؤلف.

صلة السياسة بالدين، وصلة الدين بمكارم الأخلاق.

obbeikandi.com

## تمهيد : (السياسة والقصد منها، والمؤلفات المهمة فيها) :

لم يكن لفظ - السياسة - واضح الدلالة، بين القصد كما وصلنا إليه في العصر الحديث، فقد كان عاماً إلى وقت قريب، يطلقه الباحثون على مجموعة الروابط التي تربط الفرد بنفسه وبغيره وعلى صلات الجماعات بالحاكمين وعلاقات الحكومات بما جاورها من دول، وموقف الأقسام كأفراد ومجتمعات من الله - وبذلك يشمل كثيراً من أنواع العلوم والفنون الاجتماعية التي استقلت فيما بعد، ولذلك لم تجد تعريفاً علمياً للسياسة يحدد معناها بأقل من ذلك المعنى الواسع الذي يعم المثل والأخلاق والشريعة والقوانين.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على الدين لوجدناه قد تناول تلك المسائل جميعها لذا صار غاية ووسيلة في وقت واحد آنذاك. وعلى الرغم من الجهود العلمية التي بذلها الباحثون في القرون الخمسة حتى عهد «النظام» فإن هذا اللفظ - السياسة - مازال عائماً يتأرجح، وسيبقى ما بقيت حقيقة الخير والحق والعدل رائد الإنسانية الأول وهدفها الأخير. ولهذا قيل: السياسة لفظ معرّب ومركّب أصله «سه يسا» أولى الكلمتين: فارسية بمعنى ثلاثة. والثانية: مغولية بمعنى الترتيب، أى الترتيب الثلاثة وسببه كما فى النجوم الزاهرة: أن - جنكيزخان - ملك المغول قسّم ممالكه بين أولاده الثلاثة وأوصاهم بوصايا جعلوها قانوناً لهم وسموها بذلك، ثم غيروها، فقالوا: سياسة<sup>(١)</sup>.

وهو خطأ واضح لا يحتاج إلى تدليل.. فإن اللفظ عربى أصيل وقد وجد

(١) شهاب الدين الخفاجى - شفاء الغليل ص ١٠٦ - ط مصر.

فى العربىة واستعمل فى نثرها وشعرها بمعان مختلفة قبل أن يظهر «جنكيزخان» ويغزو بجحافلہ البلدان الآمنة ويطمس معالم المدنية والحضارة .

غير أن واحداً من علماء اللغة العربية البارزين يرى ان كلمة - السياسة- مشتقة من «السوس»<sup>(١)</sup> . . إلخ .

إن المعانى التى نمر بها - ونحن نستوفى النقول الخاصة بالسياسة - تدلنا على تطورها واختلاف مفاهيمها بمرور الزمن: فهى بمعنى الرياسة والتملك . . . ثم انتقلت إلى فعل السائس . . ثم القيام على الشئ بما يصلحه .

ومن الأول جاءت «السياسة» بمعنى القوة والقهر من أجل السلطة وهو الذى تناقلته أفلام المؤلفين حتى العصر الذى نورّخ له . «فالبيرونى» يقول: «ولكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم وإنما أكثرهم جهّال لا يقومهم غير السيف والسوط، ومنذ تنصّر - قسطنطينيوس - المظفر لم يسترح كلاهما من الحركة فبغيرهما لا تتم السياسة»<sup>(٢)</sup> . وفى ضوء هذا المعنى يمكننا تفسير اعتداءات السلاجقة وقسوتهم فى بداية تأسيس الدولة وعدم تورعهم عن السلب والنهب والقتل وهتك الأعراض مما نفّر الناس منهم<sup>(٣)</sup> .

ومن الثانى جاء معنى المسايرة والمداراة الذى نقرأه فى رسالة - عبد الحميد الكاتب - إلى الكتاب إذ نراه يخاطبهم بأن سائس البهيمة إذا كان مسيراً سياستها التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحاً لم يهجمها إذا ركبها وإن كانت شبوباً . . وهكذا . إلى أن يقول: «وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وجربهم وداخلهم»<sup>(٤)</sup> .

ومن الثالث كان معناها: استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المتقيم المنجى فى الدنيا والآخرة<sup>(٥)</sup> . ولعل هذا آخر ما توصلت إليه السياسة من معنى، وهو تفسير قاله - الغزالي - المعاصر «للنظام» من مشاهير الفقهاء الذين

(١) ابن منظور - اللسان - مادة سوس ج ٧ ص ٤١٢ .

(٢) البيرونى - تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٨٠ .

(٣) المنتظم - حوادث سنة ٤٤٧ - ٤٤٨ هـ .

(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ .

(٥) الغزالي - الإحياء ج ١ ص ١٢٧ .

حضرُوا مجلسه وتأثر بهم، واعتمد عليهم فى التدريس بنظامية بغداد، إذ السياسة تنظيم لامكانيات الإنسان يكون الغرض منه استخدام ما فى الطبيعة من قوى لخيره وفائدته، وبهذا تشمل ما ذكرناه من التشكيلات الإدارية والقوة لغرض النفوذ وتوجيه الناس إلى ما تراه الحكومة خيراً لهم فى الدارين.

ومن هنا بدأ تقسيم السياسة إلى أقسام: تارة بحسب الطبقات الاجتماعية وأخرى من حيث المكان الذى تسكنها، فقسمها «ابن طباطبا» إلى أصناف ثلاثة تختلف باختلاف طبقات الرعية، فالأفاضل يساسون بمكارم الأخلاق والارتشاء اللطيف، والأوساط يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة، والعوام يساسون بالرهبة وإلزامهم الحد المستقيم، وقسروهم على الحق الصريح<sup>(١)</sup>. وقسمها غيره وهم كثيرون إلى تدبير المنزل والقرية ثم المدينة، واعتبروا علم تدبير المدينة هو أهم فروع الحكمة العملية الثلاثة<sup>(٢)</sup> كما جعلوا السياسة المدنية أعلى أنواع السياسات لأنها ترمى إلى تكوين مجتمع يقوم أفرادها بما ينبغى أن يكونوا عليه من أداء للواجبات دون حاجة إلى حكام، وإنما بدافع من خلقهم وأنفسهم، وهو ما يسمى «بالمدينة الفاضلة» أى «الأثيوبية» عند الحكماء<sup>(٣)</sup>.

والفضيلة هى الحصيلة الباقية لدى الإنسان حين يعجز العقل وتقصّر العدالة عن بعث نوازعه الروحية لدعم صلواته بأخيه الإنسان دون طمع فيه أو خوف منه.. وهى التى لم يستطع حتى الآن أن يجمع على احتقارها أو الاستهانة بنفعها أو التباهى بالتحلل منها مهما تنكر لها فريق من الناس فى بعض ساعات غروره أو طيشه أو طغيانه، وتغلّبت قوى الشر فى نفسه.

ومن هنا بدأت صلة السياسة بالأخلاق تظهر، كما بدت علاقة الأخلاق بالدين تتضح. وكان الإسلام أكثر حرصاً وأشد إمعاناً ممن سبقه فى الدعوة لها حتى أوثر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».. أمّا الصلة بين الدين كمتعقد شعورى ذى وعى وإرادة واختيار وبين

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٦، وكتاب تفسر - ترجمة الخشّاب ص ٣٩.

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٣٧.

(٣) ابن خلدون - المقدمة ص ١٤٨.

الأخلاق كسلوك مثالى يربط بين الناس أفراد وجماعات فإنها تبدو واضحة بلفظ «المروءة» التى هى جماع ما قيل فى صاحب الرسالة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١). جما جاء فى القرآن الكريم.

وتكون أكثر وضوحاً حينما نعرف أثر الضمير فى السلوك، وأن تصرفات الفرد مع غيره تتجاوب مع يقظته وغفوته، وحياته ومواته، فإذا لم يشعر الظالم بوخز وتأنيب فى أعماق ضميره صار مواطناً فاتكاً، أو حاكماً جباراً عاتياً. . وهذه الناحية الخلقية هى مهمة الدين الأساسية ووظيفته الأولى.

وأما العلاقة بين الخُلُق كتلبية لنداءات جاء بها الدين وتواضع عليها أفاضل الناس وبين السياسة كسلطة موجهة من أجل إسعاد الجماعات ورفاهية الأفراد فإنها تظهر جليةً كذلك بالغاية التى يتوخاها كلٌّ منهما.

ولم تكن الأخلاق أفكاراً تجريدية أو علماً نظرياً يكفي اعتناقها بنظر الإسلام، إنما هى صفات طيبة ولكنها عملية، ونوايا حسنة غير أنها تطبيقية جعلها من أوائل شرايط العقيدة ومن أهم خصائص «المعتقد»، لذلك لم تكن أيضاً عبادات مسجدية أو أعمالاً فردية فحسب، وإنما تشتمل حياته اليومية فى البيت وخارجه وتعم صلواته بمواطنيه والناس جميعاً. .

وعلى الرغم من الوشائج بين العناصر الثلاثة وسواء أكانت الاخلاق مثلاً ثابتة أم متغيرة حتى لتكاد تكون شيئاً واحداً بنظرهم، فقد كانت السياسة الخلقية والقيم المثالية هى المقاييس التاريخية التى جرى بمقتضاها النقد التاريخى لحياة العظماء والتى بموجبها ارتفع مثلاً سهم - على بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز - من الخلفاء الراشدين، والأمويين، بما أتوا من أعمال انسانية مجيدة، وهبط نصيب جنكيزخان وهولاكو وأمثالهما بما قاموا به من مجازر بشرية بين الأجناس والطبقات مما لم يقره الإسلام. وبذلك جمعوا بين آداب المعاشرة ونظم الحكم وتدبير شئون الرعايا، وكان من هذا الجمع كتب السياسة أو الآداب السلطانية التى وصلت إلينا لما بين هذه من روابط وغايات مشتركة. . وكان من جرأ اهتمامهم بالسجايا وصفات الفضيلة أن نقرأ الكتاب فى

(١) سورة الفلم، الآية ٤.

قوانين الملك والسياسة فلا نجد فيه سوى عناوين فى الحلم والكرم والعفو والسماحة وغيرها من الفضائل، حتى لتكاد تكون أشبه بكتب الوعظ والإرشاد منها بكتب نظم الحكم. ولكن إذا رجعنا إلى ما ألفه - النظام - فى هذا الباب وهو كتابه فى السياسة نجده قد خرج على هذا الخليط الذى سار عليه المؤلفون، ولم يضع لتلك الخلال الحميدة والخصال الفاسدة باباً واحداً وإنما درجها جميعاً فى سطور قليلة، ختم بها الفصل الثالث والأربعين الذى تحدث به عن خطر تدخل النساء فى شئون الدولة<sup>(١)</sup>.

لذلك يمكننا اعتبار «النظام» فى كتابه «سياستنامة» ممن سبق للتفريق بين تلك الموضوعات الثلاثة، وأخرج لنا كتاباً فى السياسة الإدارية موحد الفكرة واضح القصد إلى حد كبير شرح فيه واجبات السلطان وموظفى الحكومة، وأبان فيه عن رأيه بصراحة لبقة عما ينبغى أن تسير عليه الدولة من نظم وأهداف مستشهداً بالحكايات وعبر التاريخ والأمثال السائرة، فى حين حفل الآخرون بصفات الحاكمين ونقلوا أقاصيص الوعظ والحكم.

### أهم المؤلفات فى السياسة :

وقد حفظت لنا الأجيال بعض الرسائل المهمة فى هذا الباب كانت ولاشك من الوسائل التى مهدت لنضج التأليف فى السياسة، كما كانت من المصادر التى استقى «النظام» منها كتابه «سياستنامة».

يعتبر أرسطو أول فيلسوف أملى كتاباً فى هذا الموضوع - ثم تبعه - أفلاطون - منذ أربعة وعشرين قرناً ٤٢٧-٣٤٧ ق.م. بكتاب تخيل فيه الدولة المثالية دعاه بـ«الجمهورية» سجل فيه آراء أستاذه - سقراط - الذى أعدم بتهمة إفساد الشباب الأثينى ٣٩٩ ق.م. وضمته أفكاراً عليا فى السياسة النموذجية، غير أن أرسطو قد جمع بين السياسة والأخلاق لاعتقاده أنها مجموعة من المثل النسبية التى تتغير بتغير الأمكنة والأزمان.

وانتقلت فلسفة اليونان فى الأخلاق إلى عقول فلاسفة الإسلام فأوصلت إليهم من نظريات درسوها، إلا أنهم - كما يظهر - لم يفصلوا بين جانبها

(١) سياستنامة ص ١٨٣ - الأصل الفارسى.

النظري والعملی، فوصلت إلینا عدة رسائل فی هذا الخصوص كان من أهمها حسب تاریخها الزمنی: رسالة الخلیفة - عمر بن الخطاب - إلى عامله أبی موسى الأشعری فی القضاء وكيف یجب أن یكون وقد أثبتتها الجاحظ فی بیانه. وإنی قتیبة فی عیونه، وإنی عبد ربه فی عقده، والموردی فی أحكامه. ورسائل للإمام «علی بن أبی طالب» إلى عامله - مالك الأشتر النخعی - فی البصرة وإلى غیره<sup>(١)</sup>، ثم عهده إليه حینما ولأه مصر سنة ٣٩هـ، وخطبته حول حقوق الراعی والرعیة<sup>(٢)</sup>، ورسالة عبد الحمید بن محمد الكاتب إلى الكتاب فإنه أورد فیها أحكاماً فی السیاسة وآراء فی الحكم<sup>(٣)</sup>. ورسالة الصحابة لابن المقفع وقد كتبها لأبى جعفر المنصور وقد ضمتها قواعد فی الملك والإصلاح وأشار فیها إلى بعض المشكلات الإدارية التي كانت تشغل أذهان الحاکمین فی ذلك الوقت<sup>(٤)</sup>، وعنى فیها بنظام الجند والقضاء وأهميته ثم الخراج بصفة خاصة، ثم رسالة طاهر بن الحسین لابنه عبد الله لما أعطیت إليه ولاية الرقة ومصر وما بینهما وما یجب أن يلتزمه فی الإدارة والمال والقضاء والجیش. وقيادة الجیش لقتال - نصر بن شیب الخارجی - فانتشر أمرها وذاع صيتها حتى بلغت أخبارها مسامع «المأمون» فطلب إحضارها وسماعها فقال: «ما أبقی أبو الطیب شیئاً من أمر الدین والدنیا والتدبیر والرأى والسیاسة وإصلاح الملك والرعیة وحفظ البیعة وطاعة الخلفاء وتقویم الخلفاء والخلافة إلاّ وقد أحكمه وأوصى به وأمر أن یكتب بذلك إلى جمیع العمال»<sup>(٥)</sup>.

وفی العقد الثانی من القرن الثالث الهجرى ألف - أحمد بن أبی الربیع<sup>(٦)</sup> -

(١) نهج البلاغة: لابن أبی الحدید.

(٢) نهج البلاغة ج٢/ ٢٢٣، ٢٢٤، وانظر: الراعی والرعیة فی شرح عهد الإمام علی إلى والیه مالك الأشتر للمحامی توفیق الفکیکی - ط بغداد سنة ٩٦٢هـ. وقد احتوی على شخصیة الحکام وكيف ینبغی أن تكون، وانتقاء الموظفين الإداریین وطبقات الهيئة الاجتماعية والقيادة العسكرية والحرب والصلح والمعاهدات، ومسئولية الكتاب الوزراء وأوصاف الوزير، ومبدأ سیادة الأمة وأثر التجار وخزينة الدولة وإنصاف طبقات العمال والإحسان كضمان اجتماعی بآداب الولاية... إلخ ص ٣١٥.

(٣) ابن خلدون - المقدمة.

(٤) محمد كرد علی - رسائل البلغاء - ضحی الإسلام ج١/ ٢٠٤.

(٥) ابن خلدون - المقدمة ص ١٤٨.

(٥) انظر: تحقیق ذلك للأستاذ السرنجاوی - التعریف بالكتابة.

كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك<sup>(١)</sup>، وقدمه إلى محمد بن عبد الملك الزيات - وزير الخليفة المعتصم بالله - العباسى وقد وضعه فى أربعة فصول جعل الثانى منها فى أحكام الأخلاق وأقسامها والرابع فى أقسام السياسات وأحكامها.

وفى الثلث الأول من القرن الرابع - أى قبل أقل من قرن على مولد «النظام» كان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م شيخاً ناهز الثمانين يعيش فى حمى سيف الدولة الحمدانى فى حلب، وقد شهد بعينه صراع الطامعين فى النفوذ، وانفصال الإمارات الصغيرة عن الدولة الكبرى، وتجزئة المملكة الأم إلى ولايات مستقلة منها دولة الحمدانيين التى يعيش فى فيئها وتحت رعاية أمرائها.

وقد قرأ الفارابى كثيراً عن فلسفة اليونان وتأثر بأفلاطون ونظريته المثلى، فحفظته مشاهداته وقراءاته إلى تأليف كتاب على غرار ما كتبه - أفلاطون - الذى كان يتخيل دولة مثالية يدير جهازها الفلاسفة؛ لأنهم أعلم بنفوس الناس وأعرف بحقيقة السعادة وأقدر على الإرشاد لما فيه خير البرايا، فكتب «المدينة الفاضلة» وتصور أن يكون الخليفة فيها فيلسوفاً لأن الخلافة أعلى مناصب الدولة كما أن الفلسفة أرفع منازل المعرفة. . ومع هذا فإن مدينة الفارابى تختلف عن جمهورية أستاذه فى دنوها من الأرض التى كان يحيا عليها، وقربها من واقع الحياة الذى كان يعيش الناس فيه<sup>(٢)</sup>، وبعدها عن ما يناقض معتقداتهم السماوية حيث يندمج فيها الدين والسياسة والفلسفة ودحض التضاد بين الحكمة - الفلسفة - والشريعة، تلك العصا التى كان أهل السنّة يلوّحون بها.

ولم يطلع القرن الخامس حتى ظهرت مؤلفات - ابن سينا والماوردى والغزالى - إلا أنهم لم يخرجوا فيما ألفوه عن ربط الأخلاق بالدين وضمها إلى السياسة فى كتبهم، وإنما اختلفوا فى مصدر الأخلاق ما هو: فقد أرجعها

(١) وقد طبع مرتين: مطبعة المعارف المصرية سنة ١٢٨٦هـ، وكردستان العلمية بمصر سنة ١٣٢٦هـ.

(٢) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة.

الرئيس الأول إلى تحكم العقل في تصرفات الإنسان، والثالث إلى ذوقية الصوفية. وبهذا كانت رسائل هؤلاء لا تخلو من فصول خاصة في الدين والأخلاق إلى جانب السياسة.

وكان ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ في كتابه الموجز الذي سمّاه بالسياسة،<sup>(١)</sup> والذي ساهم في إتمامه تلميذه «الجوزجاني»<sup>(٢)</sup>، كما شارك البيهقي في جمع ما وجده لابن سينا في كتب أخرى<sup>(٣)</sup>، بعيداً عن السياسة التي نعرفها اليوم، والتي عرفها «النظام» وألّف فيها بعده بقليل، فإنه في محاولته الكتابة في السياسة كان يذكر لنا حق الولد على والديه، وواجبه نحوهما وأمثال ذلك كواجبات الفرد نحو نفسه وغيره، على أن أوجه الشبه بين حياتهما لو أردنا معرفتها لتلمناها بسهولة، فقد كان «ابن سينا» يخدم بعض الأمراء في بلاد فارس وما وراء النهر وتردد على بلاطاتهم وخبر الحكم عند سلاطين آل سامان وآل بويه، عالماً وطبيباً تارةً ومستشاراً ووزيراً أخرى، وكان أبوه من قبل يخدم آل سامان ببخارى، كما كان والد «النظام» في خدمة آل سبكتكين قبل السلاجقة. وكان ابن سينا هذا متخصصاً في دراساته متبحراً في مختلف العلوم حتى أصبح رئيس الفلاسفة في المشرق، فكان من المتوقع أن يكون كتابه في السياسة يتضمن آراءه في الحياة والناس أكثر من «النظام».

أمّا الماوردي المتوفى ٤٥٠ - ١٠٥٨ م ، فقد وردنا عنه كتاب سمّاه - قوانين الوزارة وسياسة الملك - ودعاها ناشره لأول مرة بـ «أدب الوزير»<sup>(٤)</sup> وقد ضمّنه فصولاً في وجوب تمسك الوزير بالدين والعدل والإحسان والروية والرضا والوعد . ثم ينتقل بالحديث إلى الوزارة فيفصل أقسامها وواجبات الوزير في كل منها وحقوقه على السلطان ، كأنه تلخيص وتتمة لما ذكره في

(١) منه نسخة مصوّرة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧١ح، ونشر في بيروت سنة ١٩١٦م.

(٢) ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء ج ٢ ص ٢.

(٣) البيهقي - تنمة صوان الحكمة ص ٣٨.

(٤) الطبعة الأولى بمكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٢٢ م . كما نشر ضمن محتويات كتاب «الوقت من ذهب»

لأحمد فريد رفاعي .

كتابه - الأحكام السلطانية - فى السياسة وتديبر الملك ويختمه بفصول فى الوصايا بتهديب النفس والاستجابة والتواضع والشكر لله على العلم ، والصبر فى الشدة والتودد إلى الناس والحذر من غدر الزمان إلى آخر ذلك فى نصائح كأنها البذور التى استثمرها «النظام» فى « وصاياه » أو مصادر الإلهام التى استوحاها فى بعض تصانيفه وبخاصة كتابه - السياسة .

وأما الغزالي - ت ٥٠٥هـ/ ١١١١ م - فإنه يبدأ كتابه الذى دعاه « نصيحة الملوك »<sup>(١)</sup> بفصول دينية فهو ينصح بها السلطان « محمد بن ملكشاه » الذى ألفه وأهداه له بالشكر لله على نعمه وأداء الفرائض والاعتقاد بالخالق وتنزيهه عن الكم والكيف ، وإثبات الصفات له والإيمان ببعده . . ثم ينتقل إلى أهميته فى الدولة ومعاينة العمال والولاية إذا ظلموا وموقفه من الرعية ، وفى هذا الباب الأول لا يتعدى الوعظ والإرشاد والحكايات عليها والاستشهاد بأبيات من الشعر والحكمة والموعظة حتى ليكاد إذا جردنا الكتاب من القصص والأمثال لم يبق منه سوى بضع وريقات فى التمهيد لها لا تخلو من الإرشاد والنصح . . وفى الباب الثانى يتحدث عن الوزارة حديثاً مقتضباً يذكر فيه ضرورتها للسلطان وواجباته نحو الوزير . ثم ينتقل فى الباب الثالث إلى وصف الكتاب وآدابهم، وفى الباب الرابع إلى الملوك وبعض الحكايات عنهم، وفى الباب الخامس إلى الحكماء وبعض الحكم من أقوالهم ، وفى السادس إلى شرف العقل وبعض المأثورات فى مدحه، ثم يختمه فى الباب السابع عن طبائع النساء وصفاتهن وشرائط الزواج بهن .

فهو كتاب - كما رأينا - بعيد عن « السياسة » كعلم له قواعده وأحكامه وعن نظم الحكم كتشريعات وقوانين لتنظيم إدارة الدولة ، وهو - إذا أوردنا له

---

(١) وقد ترجمه إلى العربية أحد تلاميذه «صفى الدين أبو الحسن على بن مبارك بن موهوب الدربلى» باسم «التبر المسبوك فى نصيحة الملوك» نشرته المطبعة التجارية بمصر. راجع ابن خلكان الوفيات ج ١٤/٢ ط طهران، والياعى وقائع سنة ٥٠٥ هـ، والصفدى ترجمة الغزالي ، والقزوينى فى تاريخ العجم، وروضات الجنات فى ترجمة مجد الدين مبارك .

تصنيفاً - فى صميم علوم الدين والأخلاق، وبهذا يختلف عن كتاب «السياسة» لوزيرنا «النظام» فى موضوعه وتبويبه وفى أسلوبه وطريقة عرضه، ومن مؤلفات الغزالي - المنقذ من الضلال - وفيه بحث أهداف العلوم ومنها - علم السياسة - وكذلك كتابه - سر العالمين - يبحث فيه نظام الحاكم .

\* \* \*

#### - سياستنامه وزمن تأليفه ونشره :

وفى ذات يوم من سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م طلب السلطان ملكشاه من كبار موظفيه أن يقدموا له تقريراً ضافياً عن الأوضاع السائدة فى المملكة على أن يتضمن المساوى والنواقص التى يلحظونها ، والتوصيات والخطط الممكنة لعلاج المشكلات التى يرونها . . حيث أحسّ بالنقص والفساد يدب فى أوصال الدولة التى وسعت أكبر رقعة عرفها التاريخ فى القرون الوسطى ، وشعر بخطورة البدع الخبيثة التى ألحقت الضرر بها، واختلال الأحوال الإدارية التى ستقضى عليها .

فى هذه الظروف الراهنة طلب من وزيره وأعيانه ونوابه أن يضعوا تقريرهم حول نظم الحكومات وتقاليد الملوك فى تدبير الممالك ، ولم تثبت النصوص التى وصلت إلينا سوى أربعة من أبرز شخصيات البلاط السلجوقى يومذاك كانوا كطرفى رهان فى حلبة السباق لنيل رضا السلطان والتودد إليه والتنافس على أرقى المناصب والفوز بها وهم : شرف الملك (١) ، وتاج الملك (٢) ، ومجد

---

(١) شرف الملك هو «أبو مسعد محمد بن منصور الخوارزمى» - عيّن رئيساً لديوان الزمام والاستيفاء فى عهد ألب أرسلان . وبأمر من سلطانه الأول بنى الضريح على قبر أبى حنيفه والمدرسة بجانبه لتدارس الفقه الحنفى . ثم عزل فى عهد ملكشاه وانزوى فى داره حتى مات سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م بأصبهان (العماد الأصبهاني).

(٢) تاج الملك - «أبو الغنائم المرزيان بن خسرو فيروز بن دارست»، كان خادماً للأمير ساوتكين مدة ثم قدّمه هذا إلى السلطان ملكشاه وزكّاه فقربّه إليه وولّاه أمور حريمه وخزائنه وعهد إليه بديوان الطغراء والإنشاء ، ثم اتفق مع المنافسين للنظام ليكيدوا له حتى قضى عليه وعلى سلطانه ثم على نفسه بيد المماليك النظامية فى المحرم من سنة ٤٨٦ هـ (العماد الاصبهاني).

الملك<sup>(١)</sup>، وكان «النظام» فى مقدمة من طلب إليه ذلك، وقد حازت مذكرته دون زميلاتها رضا السلطان وقبوله حتى عبّر عن فصولها بأنها جاءت « وفق ما يشتهى فؤاده »، فلا موجب للمزيد. وأنه سيجعلها نصب عينيه يسير بمقتضاها فى الناس. فيجيبه «النظام» بأسلوب الحكيم، ويطمئنه على استقرار الأمور، وهدوء الرعيّة، وخضوع جميع الأقطار لصولته وخشيتهم من سيفه وهيبته، وأنه يعلم كل ما يجرى فى المملكة ولا يحتاج إلى مشير أو دليل، وإنما أراد أن يمتحن عبيده ليعرف مقدار عقلهم، ودرجة علمهم، وأن هذا هو السبب الذى جعله يأمر هذا العبد أن يكتب له طرفًا من السيرة الحسنة التى لاغنى للملوك عنها (٢).

لقد وردنا كتاب السياسة بأسماء أربعة: هى سياستامة، وسير الملوك، وقانون الملك، وينجاه فصل وهى تدلنا على موضوعه، وحكايات التمثيل التى احتواها والتوصيات التى ضمنه ثم عدد فصوله، غير أن الاسم الأول أصبح أكثر شيوعًا، على أنه - كما أعتقد - أبعد عن اسمها الأصلى، فإن النصوص القديمة التى تلت عصر المؤلف تشير إلى هذا الكتاب باسم - سير الملوك - كما ورد فى نصيحة الملوك للغزالي .

ولئن صحّ هذا يكون «نظام الملك» من سبق إلى اعتبار «سير الملوك» صورًا من السياسة، لأنه وجد فى سيرتهم أمثلة حيّة عليها ونماذج ناطقة بالسياسة التى انتهجوها، لتحقيق الخير والعدل والرفاهية ونفى الشر والظلم والبؤس فى المجتمع الذى يسودونه، ولما بين سير الملوك والسياسة من صلة وثقى بحيث

(١) مجد الملك - «أبو الفضل أسعد بن محمد القمى»، قام بأعمال الملك عند ما استوزر على أثر سخط السلطان ملكشاه على وزيره «النظام»، ثم قام بدور المنافس لمؤيد الملك بن «النظام» أثناء وزارته لبركيارق، وسعى ضده وفرّق بينه وبين أخيه الكبير فخر الملك حتى تغلب على الوزارة إلى أن قتل على يد الغلمان النظامية سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م

(٢) سياستامة - مقدمة الناسخ ص ١ ، ٢ الفصل الأول فارسى .

يمكن أن يكونا شيئاً واحداً بنظرهم آنذاك، ولأنها قبل أن تكون علماً مستقلاً  
ذا قواعد خاصة ومؤلفات معينة، إنما كانت تعرف من - سير الملوك - الذى  
أمدّها بكثير من أصوله ونظرياته وطرقه. وسواء جاء اللفظ - سير - بصيغة  
الجمع يريد به تراجم حياتهم أو المصدر يقصد به عاداتهم وتقاليدهم فى إدارة  
دفة الملك فإنه من أوائل المعانى التى كان يتوخاها «النظام» فى كتابه، ولذلك  
أطلق عليه هذا الاسم - سير الملوك - خلال حديثه مع السلطان، ثم اشتهر بعد  
ذلك باسم - سياستنامه - وغطت هذه الشهرة على اسمه الأصلي.

والكتاب - كما يظهر - فى إدارة الدولة وتنظيماتها الحكّمية وليس فى  
السياسة خاصة عدا نظرات متناثرة قالها فى ثنايا العبارات الطويلة وفى خواتم  
بعض الفصول وفواتحها تعبّر عن آراء له فى تعريف شئون المملكة، وتكشف  
عن فلسفته فى الحكم والهدف من تكوين الدولة... ولعل اشتهاره باسم  
- السياسة - يعود لتلك المتفرقات فيه لأنها الغرض الأساسى من تأليف  
الكتاب، ولأن النظم الإدارية من وسائل تحقيق هذا الغرض، ومن المعانى التى  
يشملها لفظ السياسة آنذاك.

ويكاد يجمع الباحثون أن «النظام» شرع فى تأليفه وتقديم القسم الأول من  
فصوله سنة ٤٨٤هـ أى قبل اغتياله بعام واحد. ويرى بارتولد - أن المؤلف قدّم  
إلى الناسخ - محمد المغربى - وهو على أهبة السفر إلى بغداد سنة  
٤٨٥هـ/١٠٩٢م أحد عشر فصلاً إضافياً بشرط ألا يسلّمها إلى السلطان إلا بعد  
موته<sup>(١)</sup>.

وقد استقى هذا الرأى من مقدمة الناسخ وخاتمة الكتاب، وهو غير صحيح  
لأن المؤلف والناسخ لم يقولا بذلك، ولأن «النظام» لا يعرف متى وكيف  
يموت، وإن تنبأ بذلك، ولأن البحث عن الباطنية وخطر مبادئهم على الدولة

(١) سياستنامه ص ٢٥٥ - الخاتمة فارسى .

جزء من التقرير المطلوب الذى يشعر «النظام» بضرورة اطلاع السلطان عليه، فلا داعى لإخفائه حتى يموت.. ولعل الذى أوقعه فى هذا الخطأ إنما هو الخطأ فى الترجمة التى اعتمد عليها مع اعترافه بعدم دقتها<sup>(١)</sup>، وأن كل ما قاله «النظام» عند تقديمه الفصول المذكورة للمغربى: «اكتبها بخط مشرق.. وإذا منعى القدر من العودة فيمكنك عرضها أمام سيد العالم»<sup>(٢)</sup>.

ومن غير شك أن الأحد عشر فصلاً تنم عن ألم وحزن عميقين كان يعانيهما - النظام - بسبب المنافسين له فى الديوان وخارجه أمثال: «تاج الملك وحسن الصباح» ممن استمالتهم الدعوة الباطنية حتى اتهم بها السلطان نفسه، واعتقاده بخطر هذه العقيدة على كيان الدولة ووجوب تنبيهه إليه لذلك كانت لهجته فيها تعبير عن المرارة والضييق اللذين كان يشعر بهما.

والخلاصة: يمكننا القول بأن الكتاب مرّ فى ثلاث مراحل إلى أن وصل إلينا بشكله الذى بين أيدينا اليوم، الأولى: عندما وضعه - النظام - لتلبية لأمر السلطان ملكشاه - وقدمه إليه بين ثلاثة تقارير آخر من أقرانه فى تسعة وثلاثين فصلاً موجزة وكان قد كتبها على عجل وذلك فى عام ٤٨٤هـ كما تثبت النقول التى وصلت إلينا.. وثانى المراحل: حينما أعاد النظر فيه وزاد إلى كل فصل ما عنّ له وناسبه وأضاف إلى فصوله أحد عشر فصلاً فى البدع والنحل وخطورتها على المملكة وسلمه إلى خازن الكتب، وهو على جناح سفره الأخير ليلحق بموكب السلطان الذى سبقه إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ ليُتسَخَّره حتى يرفعه للسلطان بنفسه إن امتد به العمر، ويقدمه لأعتاب السلطان ليضعاف من يقظته إذا وافاه الأجل<sup>(٣)</sup>.. وكانت ثالثة المراحل: عندما حانت الفرصة للخازن واستطاع أن ينفذ أمر الوزير فنسخه وقدمه للخزانة السلطانية مؤملاً أن يحظى

(١) بارتولد - تركستان ص ٢٥، إذ يرى أن ترجمة شيفر غير دقيقة أيضاً.

(٢) سياستنامه ص ٢٥٠.

(٣) سياستنامه ص ٢٤٩، ٢٥٠ ف ٥١ فارسى.

بالرعاية والقبول<sup>(١)</sup>. وذلك فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه الذى حكم من سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥-١١١٨م أى بعد مقتل «النظام» بأربعة عشر عاماً على أقل تقدير، وذلك بسبب المعارك التى استمرت بين أبناء ملكشاه من ناحية والاضطرابات الداخلية التى أحدثتها انتفاضات الباطنية من جهة أخرى.. وقد سوَّغ الناسخ لنفسه أن يتصرّف فى بعض مضامين الكتاب وهو ينسخه فأضاف إليها عبارات الإجلال والتعظيم والدعاء بمناسبة تقديمه للسلطان الجديد، وحوّروا وغير وبدّل وحذف ما شاء له ليتناسب مع العهد الجديد ولينال رضا السلطان ويشمله برعايته وعطفه، ولسنا ندرى - على وجه التأكيد - مقدار ما أضافه أو حذفه فى جملة وفقراته، وكل ما نستطيع التثبت منه هو أن عبث النساخ قد لحقه فوجدنا فيه بعض الأحداث التاريخية الخاطئة، والوقائع التى حدثت بعد «النظام» والموضوعات النابية التى يستبعد أن يثبتها قلمه.

وصدقت نبوءة «النظام» بموته ولم يعد إلى أصفهان حياً ليرى ما عمله - المغربى - فى كتابه، وبقي كتاب السياسة - مخطوطاً يعبث بنصوصه النساخ ويحرف فى عناوينه النقلة طوال ثمانية قرون مضت على اغتيال مؤلفه «النظام» الوزير الشرقى المسلم إلى أن هيات له الأقدار باحثاً ليس من الشرق ولا من المسلمين، ذلك هو المستشرق الفرنسى - شيفر - فحقّقه ونشره سنة ١٨٩١م فكان أول من أخرج به إلى عالم النور، وأول من ترجمه إلى لغة أجنبية ثم ألحقه بملاحظات جغرافية وتاريخية سنة ١٨٩٣م، وبذلك أصبح من المتيسر الاطلاع على محتويات هذا الأثر النفيس، الذى كانت مخطوطاته نادرة جداً<sup>(٢)</sup>.

لقد رجع - شيفر - قبل نشره النص إلى ثلاث مخطوطات:

أ - كانت منسوخة سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م.

(١) سياستنامه ص ٢ - مقدمة الناسخ فارسى.

(٢) براون - تاريخ الفرس الأدبى ص ٢١٢.

ب - نخت في مدينة - أحمد أباد - سنة ١٠٢٢هـ / ١٦٣٢م عن مخطوطة  
قديمة كتبت سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م بأمر الأمير حاجب - ألب  
جمال الدين .

ج - جرى استنساخها في الهند في ١٠ شوال سنة ١٠٥٨هـ / ٢٩ تشرين  
الأول سنة ١٦٤٨م عن نسخة سابقة خطت عام ٥٦٤هـ .

ثم قوبلت نسخة - شيفر - المصححة بالمخطوطتين في مكتبة بطرسبورج  
بروسيا سنة ١٨٩٠م<sup>(١)</sup> . وقد عانى الناشر كثيراً من المتاعب وبذل كثيراً من  
الجهود للتغلب على تغييرات الناسخين وتصحيقاتهم سواء بدوافع مذهبية أو  
نتيجة للجهل . وإن كتاباً كهذا في موضوعه الواسع المتشعب، ولغته الأجنبية  
ليس من اليسير تدقيقه وإخراجه فضلاً عن ترجمته وإصدار ملحق له .

#### - منابع الكتاب والشك في نسبه:

عما قاله «النظام» وهو يقدم لكتابه هذا ويذكر أسباب تأليفه: أنه دون ما عن  
له من مشاهداته ومحفوظاته ومسموعاته ومقروءاته نزولاً على الإرادة السلطانية  
السامية<sup>(٢)</sup> . ونحن إذا رجعنا إلى الكتاب وجدنا آثار ما قاله واضحة جلية، لا  
تحتاج إلى بيان أو برهان، فإن سماعته من أعلام مجله في الحديث والأمثال،  
ومطالعاته الخاصة في كتب السير والتاريخ والآداب، ثم نتائج تجاربه وخبراته  
التي أفاد منها باختلاطه في مختلف المجتمعات وإدارته للحكومة في السلم  
والحرب . متوافرة في ثنايا فصوله .

كل هذه المنابع كانت مورداً يحتقى منه وهو يدون رسالته في السياسة ونظم  
الحكم، إلا أننا فضلاً عن معارفه العامة نستطيع تعيين بعض المصادر التي أخذ  
عنها واعتمد على أقاليمها ومنها: (بيشتكان) كتاب القدماء، و(مزدك نامه)  
وهو كتاب عن مزدك وصلاته بالملك قباد . وقد عربّه «ابن المقفع» نثرًا

(١) مقدمة شيفر ص ٢ .

(٢) سياستنامه ص ٢ - خاتمة الفصل الأول (فارسي) .

واللاحق شعراً<sup>(١)</sup>، ثم نجده يردد بعض الأفكار التي جاءت في جمهورية أفلاطون وقد شاعت في الأوساط العلمية آنذاك حول السلطان وعلاقته بالسماء ومنحه العقل والعلم ليضع كل فرد من رعاياه محله اللائق به ويختار من يستحق لحاشيته ورجال دولته<sup>(٢)</sup>. وحول فرض العقوبات على الذين تمتد أيديهم لأموال الناس من الولاية فإذا استغفر وتاب عفى عنه، وإلا فالحبس والتأديب.. وإلا فالعزل وتعيين من هو خير منه<sup>(٣)</sup>. . . ومنها (شاهنامه الفردوسى) فقد تمثل ببعض الحكايات بعد إيجازها مثل قصة: كيكائوس وزوجه سواذبه، وقصة الإسكندر وزواجه من ابنة دارا ملك الفرس<sup>(٤)</sup>، ثم تاريخ البرامكة<sup>(٥)</sup> فقد نقل عنه حكاية مجيء «برمك» إلى سليمان بن عبد الملك - مع اختلاف بسيط<sup>(٦)</sup>.

وفي طريقة عرضه للموضوعات سار على غرار سابقه من حيث التبويب والتمثيل بالقصص والحكايات وإن خالفهم في تحديد الموضوع إلى حد كبير - كما سنرى ذلك فيما بعد - ومن هنا كان التشابه بينه وبين بعض الكتب التي ألّفت للغرض ذاته وعالجت الموضوع نفسه، ومن هذه الكتب ما سبقت «سياستنامه» بعدة سنوات مثل - كليلة ودمنة - ومنها ما كان قريباً منه مثل: قابوس نامه - لكيكاوس، ونصيحة الملوك للغزالي. . . على أن ضرب المثل بالقصص في ختام كل فكرة يختلف عند ابن المقفع الذى يحكيه على السنة الحيوان، عن الحكايات التى يرويها «النظام» لأحداث وقعت لأناس فى مختلف الأمكنة والأزمان، وكذلك الأمر بالنسبة للكتابين الفارسيين المعاصرين فإن التشابه بينهما وبين «سياستنامه» وإن كان موجوداً يدفع بعض الباحثين إلى

(١) كرتستن - تاريخ الساسانيين ص ٢٥٤، ٢٥٦ ترجمة الخشاب وعزام.

(٢) انظر: سياستنامه ص ٣، ٤ الفصل الأول.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشاهنامه (نشر عزام) ج ١ ص ١٥٥، ٣٨٨.

(٥، ٦) مؤلفه مجهول. نشره ميرزا عبد العظيم خان كركانى سنة ١٣١٣هـ باسم تاريخ برامكة.

دعوى التقليد للأول والنقل عن الثاني<sup>(١)</sup>. ويدعو فريقًا آخر إلى التشكيك فى نسبته إلى مؤلفه «النظام»<sup>(٢)</sup> على أن الفروق بينهما كثيرة، وأن التشابه يكاد ينحصر فى سرد القصص وهو - كما أعتقد - ليس موضوع الكتاب ولا الغرض منه كما يظهر لقارئه. وفوق ذلك فإن الكتابين يبحثان «السياسة» بمعنى رعاية شئون النفس والأسرة والجماعة ثم علاقتهم بالله، كغيرهما من الكتب التى خلطت بين الخُلُق والسياسة وبين السلوك ونظم الحكم، وصارت السياسة عندهم أدبًا فى السلوك متصلًا بالسماء ومتمدًا من سنن الرسل والأنبياء. وقد يتطرق الشك إلى أذهان الباحثين فى نسبة الكتاب إلى «النظام» لأسباب أهمها:

أ - عدم ذكر الكتب الفارسية المعاصرة أو القريبة منها كتابًا بهذا الاسم «النظام الملك»، وكذلك المصادر العربية التى ترجمت للوزير وكتبت عن السلاجقة والعصر الذى عاش فيه.

ب - ورود بعض الحكايات منها القبيحة ومنها الخاطئة التى يستبعد أن يثبتها شخص ك«النظام» فى مؤلف له.

ومن يشك فى نسبة الكتاب إلى «النظام» الباحث الفارسى - إقبال<sup>(٣)</sup> - وميرزا عبد العظيم كركانى<sup>(٤)</sup> ثم أستاذنا - يحيى الخشّاب - إذ يرى مما يؤكد الشك فيه اختلاف أقوال الناسخ «المغربى» والمؤلف «نظام الملك» من ناحية، وعدد فصول الكتاب وكيفية تقديمها ونسخ الكتاب بعد مرور عدة أعوام تتراوح ما بين ثلاث عشرة سنة وست وعشرين على اغتيال «النظام» عند تقديمه للسلطان - محمد بن ملكشاه - الذى قدّم إليه الغزالي كتابه - نصيحة الملوك -

(١) مقدمة قابوس نامه صادق نشأت لأمين عبد المجيد.

(٢) الخشّاب - نظام الملك وسياستنامه - مجلة معهد الدراسات الإسلامية ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٣٤.

(٣) مقدمة سياستنامه.

(٤) تاريخ برامكة - المقدمة.

فى نفس الموضوع واتفاق بعض الحكايات . . ثم قبول السلطان - ملكشاه - له فى وقت كان قد غضب على «النظام»، ونحاه عن الحكم بينما رفض ما رفعه «تاج الملك» لأعتابه فى الوقت الذى كان هو المقرب إليه، القائم بأعباء الدولة، فضلاً عن الأخطاء التاريخية التى وردت فى تضاعيف الكتاب<sup>(١)</sup>.

ولم نجد - فى الواقع - من استعرض أسباب الشك فى نسبة الكتاب لصاحبه ثم انتهى إلى التساؤل عن تعليل هذه الأخطاء: أهى من جهل المؤلف أم من وضع الناسخ؟. . وإن جميع ذلك يحملنا على التأمل فيما يكون من وضع أحدهما<sup>(٢)</sup>. بل إن «النظام» صاحب كتاب السياسة أمر يحتمل الشك<sup>(٣)</sup>. . كما وجدناه فى هذا البحث العلمى المركز.

غير أننا حينما نعود إلى تفاصيل عوامل الشك نراها لا تتجاوز ثلاث نقاط: تتصل بناسخ الكتاب والمشابهة بينه وبين نصيحة الغزالي، ثم تفضيله من جهة أو من قبل السلطان على غيره من تقارير المقربين إليه. ولكننا إذا أمعنا النظر فلا نجد أولاً - تناقضاً بين أقوال الناسخ والمؤلف، ولا تعارضاً بين تصريح الأول وإغفال الثانى، إذ ليس من الضرورى على «النظام» أن يعلن له بأنه قد أزداد على فصوله التسعة والثلاثين، أحد عشر فصلاً أخرى فى الباطنية ومدى خطورتها على الدولة لأنها جزء مكمل للكتاب من ناحية، وقد اعترف الناسخ بإضافته إليه حينما أعاده إليه فى المرة الثانية من جهة أخرى، ولأن كلمة «الزيادة» تشملها أيضاً فلا موجب للتصريح بها إذن بنظر «النظام». ومن جهة ثانية فإن تأخير استنساخه أربعة عشر عاماً لا يوجب الشك فى نسبه، لأن تاريخ تدوين الكتب أثبت لنا ما تأخر تبييضه أكثر من ذلك زمناً، ثم تقل

(١) انظر: «نظام الملك» وسياستامة. بحث الفاه استاذنا المرحوم يحيى الخشاب. فى مؤتمر المستشرقين الرابع المعقد فى ميونيخ فى سبتمبر سنة ١٩٥٧م، وقد نشر فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية باللغتين العربية والإنجليزية ج ١ ص ٢٢٥-٢٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠، ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٠، ٢٣٤.

(٤) مثل: طبقات الشافعية للحافظ «تقى الدين أبى عمر عثمان بن الصلاح الشهرزورى» المتوفى سنة ٦٢٣هـ، فقد مات والكتاب مسودة فأخذه الشيخ «أبو زكريا يحيى بن شرف النووى». . ومات أيضاً والكتاب مسودة فيبضه الحافظ «أبو الحاج يوسف بن الزكى».

ونسب إلى مؤلفه دون ريب فيه<sup>(٤)</sup>. وإذا صحّ نقل - الغزالي - الذي توفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م عنه وأنه قدّم كتابه «النصيحة» إلى السلطان - محمد بن ملكشاه - فى شهور سنة ٤٩٩هـ<sup>(١)</sup> فإن هذا يحدّد لنا أن استنساخه كان قبل وفاته بستة أعوام أى أن المدة بين تقديمه الكتاب للناسخ ونسخه لا تتجاوز ١٤-٢٠ سنة على أكثر تقدير وأنه لا مجال للقول بأنها تتراوح ما بين ١٣-٢٩ سنة.

أما المشابهة بين الكتابين «السياسة والنصيحة» فى توافق بعض الحكايات فإن الفروق بينهما فى التبويب والأسلوب وحتى فى الموضوع تفوقها بكثير مما يجعلنا نطمئن كل الاطمئنان إلى أن التشكيك فى نسبة الكتاب إلى «النظام» من هذه الناحية غير مؤكدة، لأن كتاب «الغزالي» ليس فى السياسة وإنما هو فى الأخلاق والسلوك وأنه دعوة صارخة إلى الزهد والتصوف - كما رأينا ذلك من قبل - وأنه قد اطلع على «سير الملوك» «للنظام» وربما نقل عنه كما نص على ذلك فى حكاية إسماعيل السامانى<sup>(٢)</sup> إذ لا نظن كتاباً عرف بهذا الاسم فى تلك الفترة غيره، وبخاصة بالنسبة للغزالي الذى صاحب - النظام - وجالسه، وربما كان لشهرة مؤلفه قد استغنى عن ذكر اسمه . . . وممن يؤيد فكرة النقل هذه - إقبال<sup>(٣)</sup> وهماي<sup>(٤)</sup> - وكلاهما حجة فى هذا الباب لا يتطرق الشك إليهما فى دقة البحث وتجردهما فى الحكم.

وليس «الغزالي» وحده قد تفرّد بالنقل عن كتاب - السياسة - وإنما شاركه - ميرخوند - فى كتابه - روضة الصفا - فنقل عنه قصة عمرو بن الليث وذكر أنه حكاها «النظام» فى وصاياه، فى حين أنه لم يذكرها إلاّ فى كتابه «السياسة»<sup>(٥)</sup> ويقع فى الخطأ نفسه حفيده - ميرخوند مير - فى كتابه «حبيب السير»<sup>(٦)</sup>، لأنه

(١) مقدمة نصيحة الملوك لجلال هماني.

(٢) نصيحة الملوك ص ٦٢ (الأصل الفارسي)، والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك ص ٥٧، وسياستامة.

(٣) مقدمة سياستامة.

(٤) مقدمة نصيحة الملوك.

(٥) روضة الصفا وسياستامة.

(٦) حبيب السير ج ٣ ص ٩٥.

ربما نقل عن جده، وليس عن أحد الكتابين المذكورين. ثم ينقل - ميرخوند - قصة - حسن الصباح وعمر الخيام ومعاهدة «النظام» لهما زاعماً أنه رواها فى سياستنامه مع أنه ذكرها فى الوصايا وحدها<sup>(١)</sup>. وهذا يدلنا على أن الكتابين كانا معروفين لدى المؤلفين ولكنهما يختلطان عليهم فى الاسم وربما كان هذا الخلط أيضاً من صنع الناسخين الذين يستبدلون عنوان كلٍّ منهما للآخر.

وليس هؤلاء ممن عرف الكتاب ونقل عنه فحسب وإنما أخذ عنه - هندوشاه - فى كتابه «تجارب السلف»<sup>(٢)</sup> الذى ألفه فى أواخر سنة ٧٧٤هـ، كما نقل عن «النصيحة النظامية» أيضاً.

أما ظفر تقرير «النظام» بالقبول دون غيره فيمكننا تفسيره بما كان يتضمنه من حقائق عرضها بأسلوب المؤمن الصريح، وإلى ما يحتويه من موضوعات سطرها بلهجة العارف الخبير مما لم يره السلطان فى التقارير الأخرى التى قدمت إليه، بعد أن بلغ من السنّ والتجربة بحيث يعتمد على نفسه فى الحكم وإبداء الرأى وحسن الاختيار.

كل هذا يدلنا على أن هناك «للنظام» كتابين أحدهما فى «السياسة» والآخر فى «الوصايا»، ولكن الشكّ إذا تطرّق للباحث فإنما هو فيما دخلهما من تحريف وتصحيف، وإضافة وحذف، بحيث أصبح بعض الموضوعات لا تلتئم ومعرفة المؤلف ولا تتفق وحقيقة التاريخ. وهذا إنما يرجع - فى أغلب الظن - إلى فعل النساخ وجهلهم شأن المخطوطات الأخرى التى عبثت بها أقلام الناسخين بمرور الأزمان.

وفضلاً عن ذلك فليس غريباً أن يكون «النظام» مؤلفاً، وليس كثيراً عليه أن يؤثر عنه كتاب فى «السياسة» وآخر فى «الوصايا» مع علمنا بأن التأليف من خصائص الوزراء فى تلكم العصور وبخاصة الفرس فقد ترك لنا هؤلاء من

(١) روضة الصفا، والوصايا ص ٢٩-٣٥.

(٢) تجارب السلف ص ١٩٥، ٢٧٤، ٢٧٩.

المؤلفات ما يدل على طول باع، وقوة يراع، وفكر نقّاد، وذهن وقّاد حتى صار التأليف من ميّزاتهم، وعادة أليفة لهم. . ودليلاً على ذكائهم وخبراتهم أمثال: رسائل عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع. . لاسيما في موضوعات الأدب والسلوك والأخلاق والسياسة. . وقد ألف منهم في اللغتين العربية والفارسية مثل: أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمي<sup>(١)</sup> البخارى المتوفى سنة ٣٢٩هـ وزير إسماعيل بن أحمد الساماني مؤلف كتاب «تلقيح البلاغة»، وأبو عبد الله أحمد بن محمد الجيهاني وزير الأمير منصور بن نوح مؤلف كتاب - آيين نامه - وعهود الخلفاء والمسالك والممالك<sup>(٢)</sup> وأبو الحسين أحمد بن محمد السبيلي المتوفى سنة ٤١٨هـ بسامراء<sup>(٣)</sup>، وزير خوارزمشاه على بن مأمون وابنه مأمون الثاني وله كتاب «الروضة السهلية» في الأوصاف والتشبيهات. . ولما جاء البويهيون كان من وزرائهم أبو الفضل ابن العميد وابنه أبو الفتح. . ثم صاحب بن عباد، وكلهم أسهم في التأليف كما هو معروف لدى الباحثين.

وفوق ذلك فإننا لم نعرف بين المستشرقين من نفاه عن صاحبه، وإن توقف في صحة بعض مادته، ومن الفريق الأول الذى يؤيد نسبه إلى مؤلفه ويعتمد على أحدائه - بارتولد - إذ يعتبر أنه لا توجد مخطوطة يصح أن تكون وثيقة تاريخية فى دراسة بلاط السلاجقة ونظم الحكم فى القرن الحادى عشر<sup>(٤)</sup> غيرها، ومنهم - شيفر - الذى حمله الاعتقاد بصحة نسبه «للنظام» لبيدل جهوداً مضنية لإخراج الكتاب وترجمته، واعتماده على ما تضمنه من معلومات عامة ووقائع تاريخية<sup>(٥)</sup>. ومنهم - برون - الذى يعد كتاب «سياستنامه» هو الأثر

(١) السمعاني - الأنساب، مادة بلعمى. ومعجم البلدان - مادة بلعم. وكشف الظنون فى تلقيح البلاغة.

(٢) وقد أخذ ابن الفقيه الهمداني وبدل فيه ونسبه لنفسه، كما روى ياقوت فى معجمه.

(٣) ياقوت - معجم الأدياء ج ٢ ص ١٠٢.

(٤) تركستان ص ٢٥.

(٥) مقدمة سياستنامه ص ٢.

الأدبى النفس الذى اختصت به تلك الحقبة التاريخية المتعة، والذى يعدّه أهم وأثمن مؤلّف ظهر فى الفارسية بالكلام المنثور فضلاً عن النظريات والآراء الإدارية السياسية التى سجلت فيه بقلم أكبر وزير ظهر فى الشرق - على حدّ تعبيره - فى ذلك العصر<sup>(١)</sup>. . . ومن الفريق الثانى الذى يعتقد بصحة نسبته للوزير ولكنه يشك فى الركون إلى المادة التى يحتوى عليها المشرق الألمانى - نولدكه - إذ يأتى بمثل على ذلك فى قوله انتماء - طاهر بن أحمد - إلى الإسماعيلية، مع علمنا بأن تأييد هذا الحادث وإن لم يذكره المؤرخون<sup>(٢)</sup> غير أن «ابن النديم» قد ذكره فى الفهرست<sup>(٣)</sup>.

كل هذا يوصلنا إلى أن التشكيك فى نسبة الكتاب إلى الوزير لا يدعمه سند قوى ولا يسنده برهان قاطع جلىّ. . . وينتهى بنا إلى أنه بقدر تأكدنا من صحة نسبته نقطع جازمين بانتحال بعض الفقرات وتبديل بعض العناوين والعبارات، كما شمل بعض فصوله التقديم والتأخير، ولكن هذا جميعه لا ينقص من قيمة الكتاب ولا يقلّل من شأنه بين المراجع المهمّة فى إدارة الدولة السلجوقية التى تلقى لنا ضوء على دراستنا لنواحي الحياة فى الشرق الأوسط حينذاك، وتكشف لنا عن مدى فهم «النظام» لها وطريقة علاجه لمشاكلها.

- أسلوبه وموضوعه:

لقد عنى «النظام» فى تقريره بدراسة المسائل السياسية والتنظيمات الإدارية لدولة مثلى، يسعد فى ظلالها المواطنون تحت رعاية ملوكهم العادلين، وحكامهم الأمناء العارفين. . . مغتنماً الفرصة لإبداء رأيه فى هذه الشؤون، وكيف ينبغى أن تكون، مخالفاً بذلك الأسلوب الذى انتهجته التقارير الرسمية المألوفة من وصف لمظاهر الجهاز الحكومى وتصوير لأحوال الرعايا، خلواً من

(١) تُركستان ص ٢٥.

(٢) مقدمة سياستامة.

(٣) تاريخ الأدب الفارسى ص ١١٢ - ١١٨.

الآراء الشخصية بعيداً كل البعد عن النقد والتحليل النافعين في تطور الدولة وأسلوب الحكم فجاء بذلك كتاباً ضخماً يحوى خمسين فصلاً . وقيل واحداً وخمسون، وكان سجلاً حافلاً بذكريات مريرة، وخلاصة لتجارب قاسية عاشها «النظام» ثلاثين عاماً في أعباء الوزارة.

وكانت ثقافة «النظام» كما عرفنا فارسية عربية، وكان متمكناً من لغته الفارسية قدر تزلعه بالعربية بارعاً في الحديث بهما قدر استطاعته الكتابة وتذوقه لأسرار البلاغة فيهما . وقد ظهر أثر الثقافتين في موضوع الكتاب وأسلوبه فكان كما قال هو عنه: «إنه كتب هذه الفصول القلائل على وجه الاختصار، وبعبارة واضحة قريبة المنال بعيدة عن المعنى الغريب والعمير، حتى يتم للقارئ فيه الصواب»<sup>(١)</sup>. وبهذا كان على اختصاره موسوعة ثمينة يستفيد منه كبار المثقفين لما يعرضه من ألوان الفكر والآراء في السياسة والاجتماع كما يتمتع به صغار المتعلمين لما يستعرض من أحداث التاريخ وأقاصيص الماضين وسير الحاكمين، ولا يقل إفادة منه ومتعة رجال الدين لما فيه من وعظ وعبر وإرشاد وخبر، ويجد فيه هؤلاء جميعاً تجاوباً لما تعلموه، واستجابة لما يريدون أن يتعلموه.

وكانت عقيدته الإسلامية تلازمه أينما حلّ وارتحل ومتى كتب أو تكلم، لذا رأيناه كثير التضمن لآيات القرآن والحديث<sup>(٢)</sup> والأمثال والحكم، قليل الترصيع بالشعر، جرىء الرأي صريح العبارة تحسّ وأنت تقرأ له وهو يستعرض آراءه في الملك والسياسة وواجبات السلطان نحو الرعية وتحقيق العدل والمساواة والقضاء على الطغاة من الولاة والمشاغبين والمبادئ الخبيثة، أنه صوت مؤمن يسترسل في ثقة وإخلاص وصدق واعتداد، وتشعر وأنت تسير معه أنه يتحدث مع السلطان بأسلوب الحيّ المتحفظ الذي يليق بمقام الملوك.

(١) سياستنامه ف ٥١ ص ٢٥٢.

(٢) سياستنامه ف ٤٢.

ولم يكن أسلوبه على بساطته وسلاسته سهل التقليد يسير المماثلة لأنه - كما أعتقد صادر عن حرارة إيمان وحياة وجدان ليسا من السهولة واليسر أن يوجدوا في كل شخص ليكونا له منبعاً فياًضاً في الإيحاء والتعبير. . .

وكان يكتب بعنف وجرأة أحياناً مستوحياً ذهنيته الخصبه معبراً عن انفعالاته المتوقدة ونفسه الجائشة. . الغاضبة، وكان أكثر جرأة وأشد صراحة في إضافاته وزياداته فقد صورّ لسلطانه مفاصد المجتمع ومباطل الحكام، وتكابر الأراذل وتصاغر العظماء وتزلف الأدباء وذوى المطامع في المناصب، كما حدثه بحرارة وتفصيل عن الشرور والمفاصد في تدخل النساء بشئون الحكم، ونشاط الباطنية لهدم الدولة، ولم يذكر - ابن الصباح - صراحة ولكن إشاراته الخفية<sup>(١)</sup> تدل على ذلك وتندّد بحركته، ولعل مقتضيات السياسة أو الصداقة فرضت عليه تجاهل اسمه. . كل ذلك بأسلوب تهكمى ناقد قلّ أن نجد له نظيراً في أدب الفرس الحديث.

ولم تكن صداقة «النظام» لسلطانه واعتداده وفخره بها، ولا منصبه الخطير الذى يستوجب رضا السلطان عنه، وتقريبه له، ولا حاشية سوء المحيطة بالسلطان والتي تحاول الوقيعة والتكيل به، لم تكن جميع تلك الدواعى بالتى تدعوه للمواربة والمداجاة والملاينة والرياء، ولا هى بالتى تمنعه وتصده عن صراحته له بمساوى الحكم القائم وإعلان نقائصه وأخطائه وتقديم الأمثلة الشواهد بين يديه.

ولعل قداسة تلك الصداقة ورعايته لحقوقها واعتماد والد السلطان عليه وتوصيته به عند وفاته ودالته عليه فى أعماله العظام لاستقرار المملكة وامتداد حدودها، ثم إحساسه بدنو أجله<sup>(٢)</sup> وشعوره بفضاضة العيش معه ومشاهدته تردى الوضع بعد تخليه أو ضعف مركزه. كل تلك الدواعى كانت أيضاً من أسباب صراحته وجرأته.

(١) سياستنامه ف ٣ ص ٥.

(٢) أرنولد - الخلافة ص ٧٣ (الترجمة) دار اليقظة العربية.

## أقسامه وتمييزها بالأمثلة والأقاصيص :

لقد قسّم الكتاب إلى خمسين فصلاً - كما رأينا من قبل - وقد رتب فصوله حسب أهميتها لديه مبتدأً بنظرية - الملك والعقد الإلهي - التي نالت اهتماماً كبيراً في ذلك الوقت<sup>(١)</sup>، ثم يذكر واجبات السلطان وتبعاته ثم يتدرج في النظم الإدارية من القصر الملكي وحاشيته وموظفي الدولة إلى مؤسسات الجيش وقواده والسفراء والقضاء والحسبة إلى مكاتب الإنشاء وخزانات المال، بحيث لم يختم فصلاً إلاّ ويمهد لتاليه قبل أن يبدأ به . . وهو تسلسل منطقي روعى فيه وحدة الموضوع غير أنه لم يخلص من التجزئة والتفريق بين بعض الفصول بحيث يمكن ضمّها<sup>(٢)</sup>، وأخرى يمكن تقديمها وتأخيرها لتكون أذني إلى وحدة الموضوع وأقرب إلى تسلسل الفصول.

نحن لا ندعى وحدة كاملة للموضوع تتجلى في تسلسل عناوينه، واتساق فصوله وانسجام آرائه دون اختلال، وإنما نعتقد أنها ليست مفقودة إذا ما أراد القارئ أن يتلمسها وربما روعيت من قبل المؤلف إلى حد كبير . . كما لم يكن صعباً عليه أن يلاحظ ظاهرة التكرار، فهو يروى الحديث في فصل ثم يثبته في آخر، وبلفظ آخر، وهو يسجل الفكرة في مناسبة ويذكرها في مناسبة أخرى بشكل آخر<sup>(٣)</sup> مما يميل بنا إلى أنه لم يؤلفه في وقت واحد، وأنه لم يمهل الزمن ليعيد فيه النظر ويحذف منه الحوشى والفضلة والمكرر . . وكان كذلك سهلاً على القارئ أن يلاحظ التهويل والتطويل وبخاصة في أقاصيصه فإنه يفرق في المعاني والصور التي يستعرضها، إذ يمعن في عرض التفاصيل التي يود إبرازها<sup>(٤)</sup>.

(١) سياستنامه ف ٥٠ ص ٢٦٩ .

(٢) سياستنامه ف ٣١، ٣٢ وكلاهما في الجند والسلاح، وكان من الممكن جمعها بعنوان واحد .

(٣) من أمثلة التهويل: قصة أمر السلطان بجلد الأمير - أمام - باب القصر ألف جلد، وبذله جميع ما يملك وتوسطه خمسمائة شفيق وافتدائه من تلك السباط الألف بألف دينار نيسابوري فلم يجد نفعاً . وعدد الجيوش في قصة أخرى يبلغ مائة وخمسين ألف جندي، وفي ساعة واحدة قتل جيش ألب تكين ٢٥ ألف محارب - ف ٢٧ .

(٤) مثل حكاية أنوشروان مع أحد ولاة الإقطاع ص ٢١، وحكاية المعتصم مع أحد أمراء الأتراك، وقصة السلطان مع شاكيه من لصوص دير الجص .

وهو في تكراره ومبالغته في عرض الأمثلة كمن يدافع عن نفسه أمام  
سلطانه، فيطلب إليه بثّ العيون والأرصاء حول الوزير وسائر الموظفين وإنزال  
أقسى العقوبات بعد التأكد الشديد من خيانتهم ويسرد له القصص العديدة بهذا  
الشأن<sup>(١)</sup>.

وقد لجأ إلى القصة حيث لم يخف عليه أثرها في النفس وسيطرتها على  
الحس فاقتبس من مآثور الماضيين واتخذ من مسموعاته وتجاربه قصصاً للعظة  
والتذكير وليس للسمر والترفيه لأنها ليست القصد من وضع الكتاب، ولكن  
حين يجدها مؤثرة خلافة وتتصل بالموضوع فيتمثل بها<sup>(٢)</sup>.

وقد استغل طائفة من تلك القصص لتعكس صوراً من ذكرياته ومشاهداته  
في أيام صباه وكهولته وصاغها بأسلوب بلاغى أخذ تقصر عن بلوغه الترجمة  
إلى أى لغة أخرى، فقد شهد ببصره ذلك الصراع العنيف بين أجناد - سلجوق  
- فأصبحت البلاد شيعاً وأحزاباً وعمل من أجل القضاء عليه إلى أن وحد  
الصفوف وأخضع التمردين وشهد ببصيرته ما يكيد له منافسوه حينما لمسوا حدة  
ذكائه وعمق تفكيره، وبعد نظره في تدبير أمور الدولة وشئون السلطان، فنأى  
بنفسه يتلمس بيديه مكائدهم ويلتمس لهم العذر فلا يجده غير عابئ بما يصيبه  
لثقتة بأن هذا لا يضره أو يحط من قدره..

ويدت هذه الانفعالات جميعها واضحة على أقاصيصه واستشهاداته، فهو  
يطرى عهد - ألب أرسلان - حيث كان «النظام» قوياً مسيطراً فيه على كل شيء  
لا يستخدم في وظائف الدولة غير المسلمين ويأتى بالأمثلة على ذلك<sup>(٣)</sup>، وهو  
يتعرض بلهجة مؤلمة حزينة أحياناً مرّت في حياته السياسية أيام - ملكشاه -  
واختلافه معه في تسريح الجيش وخزن الأموال ويورد له الشواهد من القصص  
لأنه يريد أن تدخل في طاعة السلطان بلاد الحبشة والبربر والروم ومصر

(١) سياستنامه ص ١٩، ٢٠.

(٢) سياستنامه ف ٤٤ (الأصل الفارسي).

(٣) سياستنامه.

والمغرب، ذلك لأنه مازاد للسلطان جيشه إلا زادت ولايته<sup>(١)</sup>. . . ثم هو يصور لنا أبطال قصصه أذكىء، يحتالون على المشكلة المعقدة فيحلونها بدهاء السياسى، ولباقة الحكيم، ولا بد أن يكونوا كذلك لأنهم ملوك ويدهم زمام الأمور، ولا بد أن يكون سلطانه واحداً من هؤلاء إن لم يكن فى طبيعتهم خصوصاً وأنه لا يقل عنهم ملكاً ولا مورداً ولا يقصر عنهم دهاء ولا خبرة، فأنو شروان من الساسانيين وإسماعيل بن أحمد السامانى، وعضد الدولة البويهى ومحمود الغزنوى. . كل أولئك من أبطال قصصه الذين يتردد ذكرهم على لسانه مرات عديدة ويستشهد بمآثرهم وحسن سيرتهم ويتمثل بذكائهم وفرط نباهتهم فى معالجة القضايا المستعصية ثم إبلاغها إلى وزراءهم، فكان الملك منهم إذا احتال للمسالمة ونجح فى حلها دعا وزراءه وحاشيته وعقد مجلساً لذلك وعرض الأمر عليهم من بدايته إلى نهايته حتى يعلموا أن الملك عليم بما يجرى فى داخل بلاده، وأنه يسهر على مصالح رعاياه حريص على دفع الظلم عنهم ومعاقبة الظالمين<sup>(٢)</sup>.

وكان يتصرف فى القصص فيضيف إليها ما يراه مناسباً أو يحقق له مقصداً كدفاع عن تهمة وجهت إليه وسمع بها، أو اتهام لناوى يريد التنديد به، أو تنبيه السلطان لخطر يحاك حوله كحديث أنو شروان العادل وقد ولّى الحكم وهو ابن ١٨ سنة عن أبيه قباذ، وكيف كان ينخدع تارة ببدة مزدك وأخرى بأقوال الولاة والعمال وثالثة بالدرهم والدينار<sup>(٣)</sup>. وأحياناً يوجد خيال «النظام» فيخترع الأفاصيص أو يسعفه التفكير فيزيد أو ينقص ما يتناسب والمقام فإن من القصص ما لم يرد فى كتب التاريخ، ومن بينها ما هو أقرب إلى الخرافات والأساطير<sup>(٤)</sup>.

(١) سياستنامه ف ٤٢ ص ١٣٩، وهو نص يورده ابن الجوزى وابن الأثير وغيرهما.

(٢) سياستنامه.

(٣) سياستنامه.

(٤) مثل: خاتمة قصة - عمرو بن الليث - سياستنامه ف ٢ ص ١١، وقصة الكلب التى يرويه الراعى لبهرام جور، وكيف عشق ذئبة وتزوجها.

وكان كما تدل الأقايصص التي استشهد بها «النظام» عليمًا بأخبار الماضين عارفاً بتواريخ دول الفرس وسير الخلفاء والملمين ويتمثل بصالحها وفاسدها على السواء، وقد يورد أكثر من قصة تاريخية على الفكرة التي يعرضها فى فصل واحد. ولعل كثرة الأقايصص فى بعض الفصول من وضع النساخ وبخاصة ما ورد منها فى - نصيحة الملوك - للغزالي دون إشارة إلى المصدر الذى أخذوا عنه. . وكما أضافوا - كما نظن - فإنهم حوِّروا وغيروا فى بعض تعابيرها - وكان منها الخرافى الذى لا يصدقه العقل.

وبعد فإن أهداف «النظام» وفلفته فى تأليف هذا الكتاب لا تجهد قارئه إن أراد تلمسها فهو يصوّر لنا الحياة كما ينبغى أن تكون، كما أنه لا يترك وصفها كما هى كائنة. وهويتذمر ويخطط للوضع السياسى الراهن ويوصى ويقترح باستبداله إلى ما هو أحسن، وهو يعتقد أن هذه هى رسالة الحاكمين وبخاصة الوزراء لأنه يرى أن الوزير أكثر أهمية من السلطان إذ لا يكون هو سوى رمز أعلى للسلطة الدنيوية، كما أن الخليفة رمز للسلطة الدينية وهذا ما حدا به لأن يؤلف كتاباً آخر سماه بندگانة يضم بين دفتيه مخاطر الوزارة وشرائط الوزير وواجبات الوزراء ويقدمه لابنه - فخر الملك - ليكون له نبراساً يتضىء بنوره فى أداء مهمته وتحقيق غايته.

\* \* \*